الاحتقار كجزء من المدنية المنحطة . هناك مثل هذه المجتمعات المنحطة المحتقرة ما زالت بيننا في الشرق الاوسط منها على سبيل المثال المغدان في العراق والنور في فلسطين . ومن المحتمل ان العبريين قد امتهنوا التجارة بين البادية والحضارة في هذا المفرق من الطرق مما جلب عليهم السخط المألوف على اصحاب التجارة .

وسواء في بادية الشام ام في مصر ام في فلسطين ، فان من الواضح ان العبريين قد جابهوا احتقارا ومذلة واستعبادا في مولد حياتهم القومية كشعب . ولا بد لهذه الحالة من رد فعل لها . العزة والكرامة التي ترددت على لسان الرئيس الخالد جمال عبد الناصر لم تكن ديماجوجية خطابية ولا فكرة مثالية . انها في اكثر الاحيان موازية للخبز والماء في اهميتها . الخبز وسيلة الانسان للحياة ولكن جدارته كانسان هي غاية الانسان ، عليها تتوقف كل آلية بقاء الاصلح والنشوء والارتقاء . وعندما تهدر الكرامة او تثبت عدم الجدارة ، يسرع صاحبها الى الاعذار والحيل ليعلل ما حدث . وعندما تتعذر الاعذار والتعليلات يصل النقطة الانتحارية التي تنعدم فيها قيمة حياته او غايتها .

تحت ظل العبودية والمذلة التي عاشها بنو اسرائيل ، لم يمكن لهم أن يعيشوا بدون تعليل ما لحق بهم ، بدون تبرير جدارة حياتهم . وكلما ازدادوا غرقا بالمذلة كلما ازدادت حاجتهم الى مقادير أكبر وأكبر من التبريرات حتى وصلوا درجة من الهوس الذهاني انهم تصوروا أنفسهم شعب الله وابنائه ثم مضوا في نسج سلاسل مركبة من التعليلات والتبريرات من هذا المنطلق لكل ما حدث لهم .

ان معظم الشعوب قد ولدت في فرحة وبهجة وفي انطلاقة شامخة جبارة . هكذا بدأت حياة الامة العربية والافريقية والرومانية والبريطانية . ولكن الشعب العبري يكاد يكون الشعب الوحيد الذي بدأ حياته كشعب في ألم وعبودية . وعاد نقضى القرون من تاريخه بين الامم فيما وصفه القرآن ببلاغته المعتادة « وضربت عليهم الذلة والمسكنة ».

لقد انقرضت او ذابت — او قل انتحرت قوميا — المجموعات البشرية التي تعرضت لمثل ذلك الضغط. ولم يكن لبني اسرائيل الاستمرار في البقاء لولا الحقن المتواصلة التي غذاهم بها زعماؤهم . يكرس الحاخام ازيدور ابنشتاين في كتابه « اليهودية » فصلا عن « انتخاب اسرائيل » من قبل الرب فيعلق على كلمات سفر الخروج « فالان ان سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون خاصة لي من بين البشر فان لي كل الارض وانتم تكونون لي مملكة كهنة وامة مقدسة » ، فيقول : « ان يهوه قدر لبني اسرائيل حياة خاصة ، حياة من القدسية تبرزهم كشعب متميز عن بقية شعوب العالم » (ابشتاين ، ازيدور ، **اليهودية** ، بليكان، ١٩٥٩ ص ٢٠) وبالنظر لقدسية اسرائيل فقد انفردت بالعصمة . وهكذا وجدنا زعيم الفطرسة الصهيونية ديفيد بن غوريون يجيب على تبرير فضيحة لافون بأنها كانت هفوة فرد عليه قائلا « ان اسرائيل لا تقع في هفوة » . ولا تحسبنا أحوج الى مثال أفضل من هذا .

وفي ضوء هذا المفهوم عللت مآسي اسرائيل بكونها احداث من عمل يهوه . اراد يهوه مثلا من السبي تشتيت اليهود ليصبحوا مصابيح تستنير بها الشعوب . في ضوء ذلك أيضا نشأت الافكار الشوفينية والعرقية . على اليهود الا يمتزجوا مع بقية الشعوب . لماذا ؟ لان اليهود أنظف وأنبل والاخرين قذرون ويأكلون الاقذار . على اليهودي ان يقتصر على اكتساب الحكمة من التوراة والمشنة والتلمود . لماذا ؟ لانها احتوت كل ما يحتاجه الانسان من معرفة .. تماما مثلما يدرسون التلاميذ في اسرائيل على أساس ان جغرافية اسرائيل هي كل ما يحتاج التلميذ معرفته . أما التاريخ فما هو الا سلسلة من انجازات اليهود واضطهاد الاغيار لهم .

واذا شاء الله ان يتبنى شعبا من الشعوب ويسميه شعبه المختار وابنه المصطفى فلا بد من أن يختار هذا الشعب من انبل الشعوب واذكاها واقدرها واجملها وو...الخ . من صفات التفضيل وقضى اليهود تاريخهم في هذا الازدواج بين واقع الذل والمسكنة وخيال العظمة والسمو وعاشوا كذلك حتى القرن التاسع عشر .

النقطة الحرجة هنا كانت الثورة الفرنسية التي اطلقت اليهود من عقالهم . وتوالت على اثر ذلك سلسلة من الاحداث التي كان لها اعمق الاثر على قصة اليهود في العصر الحديث . فبعد الصراع الطويل بين نابليون وانكلترا ظهرت حاجة الطرفين